من يُغيّب رفيق شرف؟

محمد حجيري
السبت 15/08/2015
من بين الأمور اللافتة والمثيرة للانتباه، في الوسط الثقافي والتشكيلي تحديداً، غياب أي اهتمام بالفنان اللبناني الراحل رفيق شرف. فرغم مرور أكثر من 12 عاماً على رحيله، نبحث في الانترنت، فنجد ان آخر الأخبار المنشورة عنه تتعلق برحيله، مع أخبار ضئيلة لمشاركة لوحة من لوحاته في معرض... لم يفتتح متحف لأعماله، لم يجر تكريمه حتى الآن، ولم يقدم في معرض مستعاد على نحو ما حصل مع الكبار بول غيراغوسيان وشفيق عبود وحسين ماضي وصليبا الدويهي وخليل الصليبي وغيرهم.. لم تعرض لوحاته في مزادات كرايستي في دبي، ولم تدخل البورصة الفنية، كما يحصل مع أبناء جيله، وحتى الجيل الشاب...

في تغييب رفيق شرف، سرّ ما، مع ان للفنان تيمته الخاصة في التشكيل. تقصّينا عن الأسباب مع العارفين بأحوال الفنان الراحل، فسمعنا ان عائلته، ومن منطلق الحرص الشديد وخوفاً من الاستغلال والمستغلين والسماسرة وتجار الألوان، أقفلت الباب على أعماله ولوحاته ومقتنياته، وترفض أي أحد ان يقترب منها أو يطلبها أو يستعيرها للمشاركة في معرض او تظاهرة ثقافية...

قد يكون الحرص الشديد مفيداً في الاحتفاظ بأعمال الفنان وصونها من الشوائب وعالم الصالات والمزادات الذي يتحول أحيانا بهورة، لكنه في الوقت نفسه قد يصير الفنان نفسه في عهدة النسيان...

الناقد الراحل نزيه خاطر كان اقترح على الرسام محمد شرف، أن يكرم رفيق شرف من خلال كتاب فني نقدي، لكن الاقتراح لم ينفذ بسبب عدم توافر أعماله (الى جانب أنه يحتاج دعماً مالياً)، وبالتالي يظل رسّام عنترة وعبلة الأكثر تغييباً في المدة الأخيرة، سواء من بعض المقربين منه، او من السلطة الثقافية اللبنانية، وزارة الثقافة تحديداً، التي غالبا ما تقتني لوحات لكبار الفنانين وتضعها في المستودعات بانتظار أن يأتيها الدلف والرطوبة...

على أن رفيق شرف، الذي ولد العام 1932، كان أول حدث في حياته نزوله إلى بيروت حيث درس الفن في الأكاديمية اللبنانية "الالبا" وتخرج فيها العام 1955 ثم توجه إلى اسبانيا لمتابعة تحصيله الفني في معهد سان فرناندو في مدريد حتى العام 1957، ومن بعدها في أكاديمية بيترو فانوشي في ايطاليا عام 1960. ورفيق شرف الذي اشتهر بأعمال البطل الشعبي او عنترة وعبلة، كان، بحسب نقاده، فنان المراحل، إذ أنتج ما لا يقل عن تسع مراحل فنية، منها مرحلة السهول البعلبكية حيث حمل تأثيرات أستاذه لوبيز الإسباني لا سيما بسبب التشابه بين سهل بعلبك والسهول الإسبانية. وقدم لوحات عنترة، فأسطَر بألوانه البطل الشعبي، ذلك البطل الذي ما عاد حاضراً إلا في قصص عنترة وأبي زيد الهلالي والزير سالم. هذه الأسطرة للبطل الشعبي، وضعته في دائرة الضوء والشهرة المحلية والعالمية كما وضعته أيضاً في دائرة الاتهامات والانتقادات، كما تقول الناقدة التشكيلية مهى سلطان، لاقتباسه الموضوع نفسه الذي تداوله الكثير من الرسامين الفطريين العرب أمثال أبي صبحي التيناوي، بيد أن شرف كان يخاطب الفارس العربي الذي فيه بعدما انتصر على وحدته الرمادية القاتمة.

ورسم شرف العصفور الذي أراد عن طريقه أن يؤكد موضوع الحرية والانطلاق، ودخل مرحلة رسم الخيول وحركتها وخلص منها إلى ما سماه "الأيقونة الإسلامية"، وكانت تحاكي الحوار الإسلامي المسيحي وتجمع بين اطياف اللوحات الاسلامية والأيقونات البيزنطية. وركب في آخر مراحله لوحة فيها مزيج من الحروفية والإشارات والنقش والوشم متأثرا بالرسام الإسباني خوان ميرو من جهة وبالنقوش الإسلامية من جهة ثانية.

ختاماً، لست ضليعاً في توصيف أعمال رفيق شرف، وليس هذا هدفي الآن، ما أود قوله أن رسام عنترة يشكل جزءاً من وجدان الثقافة اللبنانية والعربية، ومن غير المنطقي تغييبه أو نسيانه أو تهميشه...

©جميع الحقوق محفوظة لموقع المدن 2017